البنـوية Structuralisme

–مدخل للمدارس اللسانية–

قبل كل شيء، ينبغي التنبيه إلى أنّ البنوية[1] هي منطلق جلّ المدارس اللسانية الحديثة، وعليه نعرض، بشيء من الاقتضاب، فلسفة هذه النظرية، وبعضًا من الروافد التي شكلتها.

يقسم النقاد الحداثة إلى حداثتين؛ حداثة تستندُ على العلم التجريبي والعقل الأداتي، ويقصدون بذلك "البنوية"، وحداثة تستند على فلسفة الشك، التي قامت على أساس تقويض العقل الغربي (اللوغوس)، الذي يقف وراء اليقين الموضوعي، ويعنون بذلك اتجاهات "ما بعد البنوية" أو "ما بعد الحداثة" كما يحلو لبعض الدارسين تسميتها، كالسيميولوجيا ونظرية التلقي واستراتيجية التفكيك.

والحديث عن البنوية هو وقوف عند أول معلمٍ من معالم الحداثة، هو حديث عن نظرية مكتملة الآليات، اتخذت من اللغة أساسا لها في البروز، ليس اللغة بوصفها أداة للتواصل والتعبير، بل هي هنا غايةٌ في حدّ ذاتها، فالبنوية (سجن اللغة/النسق) لا تحيلكَ إلا على معجمها الداخلي كنظامٍ من العلامات تُنتج الدلالة من خلال العلاقات القائمة فيما بينها، وهي في ذلك تستندُ على الفلسفة العقلية (المثالية)، التي ترى أنّ الحقيقة أو المعنى يُنتجه/ها العقل المغلق على نفسه، كما تتكئ على العالم التجريبي في علمنة الآليات أو الإجراءات التي يُقاربُ بها النص للوصول إلى اليقين الموضوعي ، بعيدًا عن الانطباعية والأحكام القيمية السائدة من قبل، وإذ ذاك فهي تُعطي اللغة أو النص فضلَ إنتاج المعنى، دون الارتكاز على مركز إحالي خارجي، كالمؤلف، أو القارئ، أو العوامل الأخرى مثل البيئة ، التاريخ، والجوانب النفسية.

وفهم البنوية لا يتأتى إلا بالوقوف عند مصطلح البنية(Structure)، المشتقة من الفعل اللاتيني(Stuere)، أي: بَنَى. ويعني الهيئة أو الكيفية التي يُوجدُ الشيء عليها، وفي اللغة العربية بنية الشيء ما هو أصيلٌ فيه وجوهري وثابت لا يتبدّل بتبدلّ الأوضاع والكيفيات.

[1] بِنوية أو بُنوية صيغة صرفية سليمة، بُنَويّ نسبة إلى البُنْيَة أو بِنَويّ نسبة إلى البِنية، أو بنائية إذا نسبْنا إلى البناء. غير أنّ صيغة بنيوي غير القياسية هي التي اشتهرت عند عموم الباحثين بسبب أن المترجمين الأوائل علمهم بالصرف والاشتقاق ضعيف.

وإلى **فردينان دو سوسير** يُعزى الفضل في إرساء معالم هذه النظرة الجديدة للغويات، التي صارت تعرف باسم اللغويات البنائية(وإن لم يُعثر في كتابه على كلمة بنية، بل استعمل "نسق")، فاللغة تتكون من أبنية، والبناء هو «الكيانُ المستقل المكون من عناصر متساندة...هذه العناصر يكون لها معنى فقط عن طريق علاقاتها ببعضها في نسق رمزي معقد هو الذي نسميه "لغة"»[1].

والخطاب النقدي لما لجأ إلى الكشوفات التي حققتها اللسانيات على يد **سوسير**، إنما كان يحاول تحقيق حلمٍ طالما راوده، ألا وهو بلوغ الموضوعية في الدراسة الأدبية، والتي بدأت –كما سنرى –مع الشكلية الروسية، عندما استعانت بنتائج العلم التجريبي في دراستها لنصوص أدبية، لكن البنوية إذ تفعل ذلك فليس لأجل الارتماء في أحضان العلم التجريبي، بقدرِ ما هيَ تسعى للتخفيف من سطوة علم النفس وعلم الاجتماع وعلم التاريخ على مجال النقد، في محاولة منها لتحقيق التوازن، وهو أن تطبق منهجا علميا على مجال غير علمي (العلوم الإنسانية)، حتى تتخلّص من المفاهيم النقدية القيمية التي أرهقت كاهل النقد، وجعلته مجرد مخبرٍ لتجارب هذه العلوم[2].

والبنوية في دعوتها إلى الاهتمام بالجوانب الداخلية للنص الأدبي بعيدًا عن كل ما يمتّ بصلة للنص، حتى صاحبه، تكون قد أعادت فكرة "سجن النسق" من جديد؛ إذ جعلت اللغة غاية في حدّ ذاتها، بل إنّ الانسان يولد فيها، فهي "بيت الوجود" بتعبير **هيدغر**، وما على الانسان، كاتبًا أو قارئا، إلا أن يستجيبَ لأنساقها الداخلية الثابتة. هذه الدعوة هي تأكيد لثورة البنوية على الذات العارفة(الكوجيطو) عند **ديكارت**، والمتعالية عند **كانط**، مع أنّ المتأمل لفلسفة **ديكارت** و**كانط** يجد أنّ البنوية قد نمت في أحضانهما، صحيح أنها تقف معارضة للتعالي الذي أقرّته الفلسفة العقلية، وقد ذكر هذا **بول ريكور** بقوله: إنّ البنوية كانطية دون ذات متعالية.

---

[1] أحمد أبو زيد، المدخل إلى البنائية، ص224–226.

[2] عبد الغني بارة، أزمة المصطلح في الخطاب النقدي المعاصر، رسالة ماجستير، ص68. وهي التصورات الكلاسيكية التي سادت قبل العشرينيات في ضوء نظرية الانعكاس، والتي ترى أنّ كل ما يُنتجه الانسان عبر اللغة هو انعكاس لبيئته، ومثلها التحليل التاريخي في تقديره السياق التاريخي الذي صاغ فيه المبدع إنتاجه، متناسين بذلك النص، لذلك سميت بالدراسات الاسقاطية أو الانعكاسية أو السياقية أو التاريخية. والتي أدخلت الأدب في أزمة وإن أبدت جدواها في لحظة زمنية ما، غير ان الحال تبدّل، وظهرت تماذج معرفية جديدة أبدلت الصيغ المتهالكة الاسقاطية بأخرى تروم تحليل النص من داخله، متمثلة، بداية، في النموذج اللساني الذي ينظر إلى النص بوصفه نسقًا أو متوالية كلامية تحكمها ثنائيات: شفاهي/ كتابي، لغة /كلام، سانكرونيك/ دياكرونيك. وبهذا تمّ الخروج من المناهج الانعكاسية إلى مناهج محايثة نسقية، أعادت الاعتبار للنص، إذ للغته قدرة تنظيم داخلي، وليست مجرد إشارات تعبر عن نفسيات أصحابها، كما لا تخضع لأي سلطة كانت، سوى سلطة النموذج اللساني.

***مفاهيم أساسية:**

أولا- البنية Structure

أصلها لاتيني Struere ومعناها البناء العادي، بنية الطاولة: مكوناتها، وبالفرنسية Structure وتعني النظام. وهناك مصطلحات عديدة تماثل هذا المصطلح: التركيب، الترتيب، الشكل(forme) ، الهيكلة(Organisation).

لا يتعلق مصطلح البنية بمجال اللسانيات وحده، بل نجد له صدى في العديد من العلوم والمجالات والميادين، من ذلك الأنثروبولوجيا (الإناسة)، وعلم النفس، والفلسفة، والديداكتيك، والرياضيات، وعلم الفيزياء، وعلم الأحياء(البيولوجيا)، وغيرها. (نجد مثلا: بنية الذرة في الفيزياء، بنية الخلية في علم الأحياء، البناء الفوقي والبناء التحتي في الاقتصاد عند الماركسيين).

على أننا –ههنا– سنتطرق إلى كيفية دخول البنوية إلى علم اللغة، بالتركيز على أعمال روادها، على رأسهم فردينان دي سوسير وكلود ليفي شتراوس وجاك لاكان، وغيرهم من مستحدثي المدارس اللسانية المنشقة من مدرسة رائد البنوية سوسير، المتوزعين على أقطار عديدة، ومشارب فكرية شتى.

يرتكز مفهوم **البنية** على مُسلمة مفادُها أنّ «البنية تكتفي بذاتها، ولا تتطلّبُ لإدراكها اللجوءَ إلى أيّ من العناصر الغريبة عن طبيعتها...وتبدو البنية، بتقدير أوليّ، مجموعة تحويلات تحتوي على قوانينَ كمجموعة (تقابلُ خصائص العناصر) تبقى أو تغتني بلعبة التحويلات نفسها، دون أن تتعدى حدودها أو أن تستعين بعناصرَ خارجية. وبكلمة موجزة، تتألفُ البنية من ميزات ثلاث : الجملة، والتحويلات، والضبط الذاتي»[1].

1-**«الجملة (La totalite)**: تتشكلُ البنية من عناصر مستقلة عن الكل، ولكن هذه العناصر تخضعُ لقوانينَ تميز المجموعة كمجموعة، وهذه القوانين المسماة تركيبية لا تقتصر على كونها روابط تراكمية ، ولكنها تُضفي على الكل ككل خصائصَ المجموعة المُغايرةِ لخصائص العناصر»[2].

بصيغة أخرى: تتكون البنية من عناصر تأخذ قيمتها فقط من تآلفها وتجاورها مع بقية العناصر الأخرى.

2-**التحويلات Les transformations**: فالتغيرات التي تطرأ على بنية ما تؤدي إلى إحداث تغيرات جوهرية في هيكلها العام، فالجملات البنوية تتمسك بالقوانين التي تتركب منها، اصطلحت عليه اللسانيات بالعلاقات الاستبدالية (Paradigmatique) ؛ أي التي تقوم بين الوحدات التي يمكن أن يحلّ إحداها محل الأخرى، والعلاقات

---

[1] جان بياجيه، البنيوية، ص8.

[2] نفسه، ص9.

التوزيعية(Syntagmatique)، وهي العلاقات التي يمكن أن تربط بعضها ببعض، بحيث لا يكون الوصف بنائيا حقيقيا إلا بتشخيص دقيقٍ لهذه العلاقات.

3-الضبط الذاتي L'autoréglage: «إنّ الميزة الأساسية الثالثة للبنيات هي أنها تستطيع أن تضبطَ نفسها، هذا الضبط الذاتي، يؤدي إلى الحفاظ عليها، وإلى نوع من الانغلاق»[1]، بحيث لا تتطلب مطلقا مؤثرات أو عواملَ خارجية من أجل الحفاظ على هيكلها العام من الاندثار أو التفسّخ.

ثانيًا-موت المؤلف:

لم يعد المؤلف يتمتع بالميزات نفسها التي تمتع بها في عصر الهيمنة الكلاسيكي، فمع تطور المنهج البنوي زالت عنه هالة التقدير، فلا هو -بعد هذا- مبدع ولا هو عبقري، وإنما هو مستخدم للغة، لم يبتدعها، بل ورثها مثلما ورثها غيره. هذا التوجه جرّد المؤلف من كل ما كان يتمتع به في السابق من امتيازات كاحتكاره معناه الخاص، وعبقريته التي تُفضي به دون سواه إلى حقائق قارّة، أو أمور لم يتنبّه لها غيره[2].

وموتُ المؤلف صيحة نادى بها **رولان بارت**، يعادي من خلالها كل دعوة تنادي بدراسة شخصية صاحب النص للوصول إلى الدلالة فيه، لأنّ الكاتب حسبه لا يعدو أن يكون مجرد «ناسخٍ" سامٍ ومضحكٍ معا" خالٍ من المشاعر والانطباعات، مخلوق أجوف إلا من هذا القاموس الهائل الذي يغرف منه كتابه...وتتمثل كل قوته في مزج كتاباته هنا، ومعارضتها هناك»[3].

وموت المؤلف هنا موت رمزي، موت الذات العارفة والمتعالية التي أقرّتها الفلسفة المثالية، والذات الحالمة التي نادى بها الرومنسيون. وهي فكرة تجد جذورها عند **نيتشه** في دعوته إلى موت الاله، وكذا **هيدغر** في سعيه

---

[1] نفسه، ص13.

[2] انظر: ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، ص241.

[3] محمود خضر خربطلي، إشكالية موت المؤلف، مجلة الآداب، جامعة قسنطينة، ع4، 1997، ص286، نقلا عن: عبد الغني بارة، أزمة المصطلح في الخطاب النقدي المعاصر، رسالة ماجستير، ص71. و«ما المؤلف إلا ناسخ يعتمد على مخزون هائل من اللغة الموروثة...خاصة أن اللغة (المادة ذاتها) هي التي تنطق وتتكلم وليس المؤلف أو صوته. ثم إنّ المعجم الذي يعتمد عليه المؤلف ليس موروثا مشاعا وحسب، وإنما هو أيضا مخزون هائل من الاقتطافات والاشارات التي تنبع من الثقافة وتؤسس بدورها هذه الثقافة. فالنص الذي هذا مصدره هو نص متعدد الأصوات بما أنه بني من كتابات مختلفة توجد بينها علاقة ما، وليست وحدة عضوية مصدرها المؤلف. فالنص مجرد معجم غير متجانس، تصطف كلماته في تتابعية العلامات والاشارات حسب أعراف مقننة لا يمكن لمؤلف تجاوزها، وتنبع من مخزن نصوص متداخلة. هذه الصفات تقتل المؤلف، وتحول التاريخ والتراث التقليدي إلى نصوصية متداخلة». ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي إضاءة لأكثر من سبعين تيارا ومصطلحا نقديا معاصرا، ص242.

لتقويض صرح الفلسفة العقلية (المثالية)، وعند **فوكو** أيضا في حفرياته. وهي فكرة ساندتها أصوات في الوطن العربي، وعلى رأسهم **عبد السلام المسدي**، نجدها مبسوطة في كتابه "قضية البنيوية (دراسة ونماذج)".

إذا، فالبنوية، والحال هذه، حررت الذات الإنسانية من عبودية الفلسفات العقلية، فعزلتها عن الأشياء، ولم تتخذ مرجعا في الوصول إلى الحقيقة، كما جعلتها شاهدا على عملها في النص، أين يتسنى لها استنباط القوانين الموجودة في أنساق النص، هذا الأخير هو الأول والآخر في تحديد قيمة الابداع، بعيدا عن الأحكام القيمية، متخلصا من سلطة الحضور التي يمليها على الناقد صاحبُ الإبداع[1].

ثالثًا-المُحايثة:

وهو واحد من المفاهيم التي أشاعتها البنوية في بداية الستينات من القرن العشرين، ليصبح بعد ذلك مفهوما مركزيا، استنادا إليه يفهم النص وتُنجز قراءته. فالتحليل المُحايِث هو وحده الذي يجيب عن كل الأسئلة، ويدرك كل المعاني. والمقصود به أنّ النص لا يُنظرُ إليه إلا في ذاته مفصولاً عن أي شيء يوجد خارجه. والمحايثة بهذا المعنى هي عزل النص والتخلص من كل السياقات المحيطة به، فالمعنى ينتجه نص مستقل بذاته، ويمتلك دلالاته في انفصال عن أي شيء آخر[2].

النقد البنيوي والمنهج البنيوي:

النقد البنيوي هو إخضاع العمل الأدبي أو اللغوي للنقد المتبني مبادئ البنيوية، وهي الثنائية بين الدال والمدلول وإقصاء القيم والاعتبارات غير اللغوية في تفسير البنية اللغوية ...أي تركز على العمل المدروس من الداخل من غير استلهام العوامل التاريخية والاجتماعية وغيرها في التفسير، ورُواده كثر: رولان بارت وبينفينيست وديريدا...وغيرهم.

أما **المنهج البنيوي** فهو الطرق والإجراءات التي يحلل بها البنيويون اللغة والأدب وكل الموضوعات التي يدرسونها..

"كمال أبو ديب" مثلا اتبع المنهج البنيوي في تحليل الشعر في كتابه: جدلية الخفاء والتجلي.

---

[1] انظر: عبد الغني بارة، أزمة المصطلح في الخطاب النقدي المعاصر، رسالة ماجستير، ص72.

[2] سعيد بنكراد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها، ص255.

"لوسيان غولدمان" بنيوي لكنه أخذ طريقا مغايرا، حيث اتبع منهج البنيوية التكوينية في تحليل الروايات، والبنيوية التكوينية شكل من أشكال البنيوية يتميز بمراعاة البعد التاريخي واهتمامه بالتكوين أو التوليد وتطور الهياكل المدروسة. وله فائدة في رصد تطور العمل الأدبي.

أنواع من البنيوية:

البنيوية بنيويات متعددة:

1-**البنيوية اللسانية:** مع دي سوسير ومارتينيه وبالمسليف وجاكبسون وتروبتسكوي وهاريس وبلومفيلد وهوكيت

2-**البنيوية السردية:** مع رولان بارت وكلود بريموند وجيرار جونيت.

3-**البنيوية الأسلوبية:** مع ريفاتير وليوسنزر ومازيوبير.

4-**بنيوية الشعر:** مع جان كوهين وجوليا كريستيفا ولوتمان

5-**البنيوية النفسية:** مع جاك لاكان وشارل مورون

6-**بنيوية الأنثربولوجيا:** مع كلود ليفي ستراوس وفلاديمير بروب

7-**البنيوية الفلسفية:** مع جان بياجيه وميشيل فوكو وجاك دريدا ولوي ألتوسير

8-**البنيوية الدراماتولوجية:** مع كوريس

*أفكار للمناقشة:

-(لقد مات الإنسان)

-موت المؤلف تزامن مع "موت الانسان" وموت الذات. وهذا ما يعطي النص الطابع اللاشخصاني الذي يميز الكتابات البنائية.

-موت المؤلف إعلان لسلطة النسق.

-قدمت البنيوية نفسها على أنها مشروع شامل، وقد قامت على أساس إضفاء صفة الموضوعية على النصوص.

–طُرحت البنيوية في مجال النقد الأدبي على أنها النظرية التي تحمل من صرامة المنهج العلمي ومن تحديداته ما يجعلها غير معرضة للخطأ مطلقا.

–أصبح المنهج البنائي معادلا للمنهج العلمي.

– ولّت البنوية وجهها شطر النسق المغلق المحايث.

–اللغة نسق من العلامات: تساندٌ قائم بين الأجزاء التي تكتسبُ قيمتها وتقوم بوظائفها بفضل علاقاتها مع الكل/ اللغة نسقٌ من العناصر المتساندة أو المترابطة ترابطا وظيفيا، ولن ندرك أهمية هذه العناصر وقيمتها إلا عن طريق تحديد مكانها وموقفها من النسق، وليس عن طريق معرفة تاريخها/ اللغة نسق من الأصوات الصادرة عن شفاه متكلمي اللغة الآن.

–الفونيمات تكتسب معنى حين تدخل فقط في أنساق.

–إنّ أهم ما يميز المنهج البنائي هو النظرة الكلية الشاملة التي يعالج بها الظواهر موضوع الدراسة (وهي هنا النص)، بحيث يعطي الكل أولوية على الأجزاء أو العناصر التي تدخل في تكوينه، وهذا لا يعني أنّ البنائية تغفل هذه الأجزاء أو العناصر والوحدات الصغيرة المكونة للكل، وإنما هي على العكس من ذلك، ترى أنّ فهم هذه الأجزاء والعناصر لا يتيسر إلا إذا نظرنا إليها في علاقتها ببعضها من ناحية، وفي علاقاتها بالكل أيضا، فالمهم هو دراسة شبكة العلاقات التي تربط بين هذه العناصر والأجزاء.

–هدف البنيوية المنفرد والحقيقي إنما هو اللغة منظورا إليها في ذاتها ولذاتها. ولا اعتبار للأنساق الأخرى، التاريخية أو الاجتماعية أو السيكولوجية...إلخ.

–مكانة دوسوسير في علم العلامات ترجع إلى معالجته للغة كموضوع مستقل يمكن إخضاعه للبحث العلمي، وإلى محاولته فصل دراسة اللغة عن الاعتبارات السيكولوجية والسوسيولوجية وغيرهما، والاتجاه إلى تفسير حقائق اللغة بالرجوع إلى المحددات اللغوية أو اللسانية وحدها.

–النص بنيةٌ رياضية تتجسد من خلال مورفولوجيته وتراكيبه.

–المنظور البنائي يُقابل بين اللغة الأدبية ولغة القواعد (النحو والصرف Gramatologie)

–يقول سوسير: «عندما نؤرخ للعبة الشطرنج ندرس انتقالها من إيران إلى أوروبا، وهذا يعتبرُ خارجيا، أمّا عندما ندرس نظامها وقوانينها فإننا حينئذ أمام عناصرها الداخلية. كذلك لو بدّلنا قطع الشطرنج الخشبية

بأخرى من العاج لم يمسّ هذا النظام الداخلي للعب، أما لو انتقصنا من عدد القطع أو زدنا عليها لكان لذلك تأثيره العميق في قواعد اللعب».

–مع البنيوية نستقرئ أدبية النص بما هو لغة لا غير، أي أننا نبدأ من معطيات، ونخلص في النهاية إلى هذه المعطيات نفسها.

–التعارض بين مادة اللغة وشكلها، واعتبار اللغة (شكلا) أكثر منها (مادة)، فطبيعة العنصر أو الجزء لا تتحدد عن طريق معرفة مادته، وإنما عن طريق معرفة وظيفته في الكل الذي يدخل في تكوينه.

–الوظيفة العلائقية هي مكمن كل شعرية.

–لا سبيل في ظل سجن النسق للبحث عن اللحظة الجمالية(القيمة).

–التحليل البنوي تحليل تزامني آني.

–أفاد المفكرون البنائيون من آراء سوسير، ويظهر ذلك بقوة في كتابات رولان بارت في النقد الأدبي والثقافة الجماهيرية، وهي الكتابات التي ضمنها كتابه أساطير Mythologies

–البنيوية، بتعريف رولان بارت، (هي أسلوب أو طريقة لتحليل المنتجات الثقافية...وإنّ هذه الطريقة أو الأسلوب بدأ أصلا في مناهج اللغويات الحديثة)

–أعطى رولان بارت الأولوية لدراسة (الدال) على (المدلول).

–البنائيون ولتأثرهم بدوسوسير قالوا بإمكان دراسة كل الصور الثقافية كما لو كانت لغات، وتطبيق المناهج المستخدمة في دراسة اللغويات البنائية على دراسة المظاهر الثقافية، وهذا هو ما فعله البنائيون في مجال الأدب.

–صلاحية المنهج البنائي لدراسة كل الظواهر الثقافية غير اللغوية.

–لم تبق البنيوية في الساحة النقدية إلا مدة قصيرة، وقد تعرضت للشرخ من قبل أهلها، فوكو وبارت ودريدا وغيرهم.

––البنيوية سجنت الرسالة اللغوية وسوّت بين النصوص، ولم تُقم اعتبارات لجودة هذه ورداءة تلك: لا بحث عن معنى اللغة، وهذا إجحاف لبعض النصوص القيمة. فتساوي النصوص يُخرجها من دائرة التصنيف الإبداعي، إذ لم يعد هناك تمايز بين قصيدة وأخرى.

–يرى جون ستاروك أنّ لدى البنائيين نوع من الهوس باللغة، وبخاصة فيما يتعلق بطبيعتها النظمية، وبقدرتها اللامتناهية على العطاء.

–موت المؤلف كان بمثابة التبشير بميلاد القارئ المبدع، حتى وإن تشدّدت في موقفها حول انغلاق النص على نفسه.

–اتجاهات "ما بعد البنوية" خرجت من عباءة البنوية، وحافظت على كثير من دعاويها.

نقد البنيوية:

إنّ البنيوية في دعوتها إلى الاهتمام بالجوانب الداخلية للنص الأدبي بعيدًا عن كلّ ما يمتّ بصلة للنص، بما في ذلك صاحبه، تكون قد أرست لفكرة "سجن النسق"، بجعلها اللغة غاية في حدّ ذاتها، بل إنّ الانسان يولدُ فيها، فهي "بيت الوجود" بتعبير مارتن هايدغر في كتابه (الوجود والزمن).

وما للإنسان (كاتبًا أو قارئا) إلا أن يقبعَ في سجن اللغة، التي تتميزُ بطبيعتها النظمية(Institutional) وبقدرتها اللامتناهية على العطاء، وباكتفائها بذاتها بعيدًا عن الأنساق الخارجة عن حدود النص.

وعلى الرغم من أن البنيوية قد شغلت مدارات معرفية وحقول منهجية أخرى (تولدت من صُلبها البنيوية الأنثربولوجية مع ليفي شتراوس، والبنيوية النفسية مع جاك لاكان، والبنيوية الاجتماعية ...)، ورغم بعدها الإيجابي بفصلها المسائل اللغوية عن الاعتبارات السيكولوجية والفيلولوجية والاجتماعية، وارتمائها في أحضان العلم التجريبي، وتخلصها من ربقة المفاهيم النقدية القيمية التي أرهقت كاهل النقد، فقد آلت بهذا النهج إلى نتائج سلبية، وتحولت معها الدراسة الأدبية إلى أشكال ورموز واشارات رياضية، وجملة من الجداول فيها من الإحصاء ما يُشوّش جمالية النص الأدبي، ويوتر عملية الفهم ويعيقها. لذلك نجد سارتر «ينفي إمكانية أن تكون البنيوية فلسفةً أو مذهبًا أو عقيدة، وإذا قدر لها أن تكون مذهبا ذا نزعةٍ علمية تؤمن بالنموذج اللغوي أو الرياضي الواحد، وتسعى إلى فرضه فرضا على الذهن البشري، فستأتي تفسيراته وتعليلاته أحادية الجانب، متعصبةً إلى أبعد الحدود»[1].

وانطلاقا مما توصلت إليه البنيوية فقد تحول البحث في جمالية النص إلى إجراء ميكانيكي ، والتحليل البنيوي على هذا الأساس أشبه بتسليط الأشعة السينية على الجسم لتصل إلى العظام متخطية، بل متجاهلة، لطبقات كثيرة قبل أن تصل العظام.

وفي التحليل وفق التصور البنيوي اغتيالٌ لعنصرين أساسيين في العملية الإبداعية، وهما الكاتب والقارئ، ناهيكَ عن الطابع التجريدي الذي يرتديه النص الأدبي في ضوء التحليل البنيوي ممّا يؤدي إلى طمس بُعده الإنساني، وفي ذلك أُفول للإرادة الإنسانية الفاعلة، إذ ينحسر دور المتلقي، ويخضع كليا لسلطة النص ذاته، «فنوايا القارئ وأفكاره وخبرته، وكذلك نوايا مبدع النص ذاته لا قيمةَ لها، والقراءة الإبداعية (حسب البنيوية) هي القراءة التي تسعى للكشف عن المكونات البنيوية والأنساق الداخلية للنص الأدبي»[2].

---

[1] عمر مهيبل، البنيوية في الفكر الفلسفي المعاصر، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، ط2 ،1993، ص34،35.

[2] فاضل ثامر، اللغة الثانية، ص45.

وقد وقعت البنيوية في ورطة منهجية، وهذا ما التفت إليه ميجان الرويلي وسعد البازعي، إذ حَصَرا سلبيات منهجها في أربع نقاط جوهرية، أولاها «نفي العلمية عنها بالرغم من استخدامها للرسوم البيانية وجداولَ متشابكة، تُخبرنا في النهاية ما كنا نعرفه مسبقا، وثانيها: تجاهلها للتاريخ، وثالثها: عزل النص عن سياقه وعن الذات القارئة، ورابعها: إهمالها للمعنى»[1].والفشل الحقيقي الذي مُنيت به البنيوية في رأي عبد العزيز حمودة هو «العجز عن تحقيق المعنى...وإذا سلّمنا بكفاءة المنهج البنيوي في تقديم منهج علمي للغة، فمن الصعب التسليم بكفاءته في تحليل النصوص الأدبية وإنارتها وتحقيق المعنى»[2].

فالتحليل البنائي لا يهتم مطلقا بالكشف عن المعاني الخفية حتى أنّ بارت نفسه يشبه النص الأدبي انطلاقا من التحليل البنيوي بالبصلة التي تتركّب من عدد كبير من الطبقات (أو المستويات أو الأنساق) بحيث لا يضمّ جسمها في آخر الأمر قلبًا أو نواةً أو سرًا أو أي مبدأ آخر بسيط لا يمكن تقليصه إلى ما هو أبسط منه، وإنّما يتألف جسمها من تلك الأغشية العديدة اللانهائية التي لا تغلف أي شيء سوى سطحها الخارجي. وهذا معناه أنّ التحليل البنائي للنص لن يعطينا أي تفسير نهائي، بل إنه لا يهدفُ إلى تقديم مثل هذا التفسير، إنما هو عملية آلية تهدف إلى الكشف عن الشفرات (codes) المتعلقة بهذا النص، فيعين حدودها وسياقها وتسلسلها وتتابعها، ويفترض طيلة الوقت احتمال ظهور شفرات أخرى في ضوء الشفرات الأولى، بحيث تكون هذه العملية أشبه بعملية فكّ أو إنسال خيوط نسيجٍ ما، إذ تبدأ في أي موضع وسوف لن يجدَ المرء في النهاية أي شيء تحت هذا كله.

هذا، ولم يكن أحد يتصور أنّ هذا المنهج يمكن أن تُوجه إليه السِهام من داخله، أو أن يأتي بعض أعلامه الكبار أنفسهم أمثال "رولان بارت"، ويعلنوا أن هذا المشروع البنيوي الشامل لا يَقلُ يوتوبية(أو دخولا في الحلم) عن أي مشروع يوتوبي آخر.

إنّ هذه الانتقادات الموجهة إلى البنيوية تؤكدها اعترافات وتصريحات النقاد الغربيين أنفسهم، ولعلّ هذا ما جعلَ تودوروف يذهبُ إلى أن «الاعتمادَ على مبدأ البنية الشكلية المباشرة يقودُ إلى العقم والانتهاء إلى مجرد تصنيف محدود»[3]. ونجده في موضع آخر يقول: «ظواهر المعنى التي تمثل موضوع التفسير لا يمكن تحديدها بسهولة...ومن ثَمَّ فإن ما يمكن وصفه موضوعيًا –عدد الكلمات أو عدد المقاطع أو الأصوات–لا يمكننا من استخراج المعنى»[4].

---

[1] ميجان الرويلي وسعد البازعي، دليل الناقد الأدبي، ص75.

[2] عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة (من البنيوية إلى التفكيك)، ص281، 282.

[3] صلاح فضل، نظرية البنائية في النقد الأدبي، ص103.

[4] عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة (من البنيوية إلى التفكيك)، ص283، 284.